في رحاب الخلود

الملك الشهيد

بقلم الأستاذ عبد الفتاح السمنودي

عضو الآداب بالمعهد الأزهري

« هو فتى بدا شرفه وعظم مظهره ، مشيته طليقة جريئة لا أثر فيها للبطر والخيلاء ... هو مقبل علينا وفي إقباله روعة وحول مقدمه جلال ، ولكنه رغم ذلك يائس زرايا غلاظا جافية لا تشهد على نعمة ولا جاه ولا شرف ؛ فمن ترى يكون ذلك الفتى الذي أهمنا دون غيره ؟؟؟ »

« عجيب أن تفكره وهو طالما غشي المجامع وجلس إلى الناس كما يجلسون إلى أنفسهم ، وشغله من أمورهم أكثر مما يهمهم من شئون أنفسهم . . . هو الملك الذي يحيه الناس مثل جميع الآلهة الخالدين ... !!! »

« وهكذا يكون الملوك ياصاحبي ! : أين ملابسه المزركشة الموشاة بالذهب والجواهر؟؟ وأين من يتقدمون شخصه من الحراس ؟؟ وأين من يسيرون وفي أثره من الكبراء والوزراء؟؟ وما الذي يجعل لا يصنع بنفسه ما يصنع الملوك بأنفسهم ؟؟؟ »

« في هذا يا أخي يجد الملك لذة العيش وسعادة الحكم وراحة الضمير ! ! وبهذا يضرب الأمثال للأشراف المترفين الذين ألهاهم التكاثر عن صالح الناس وخيرهم ، وبهذا يرفع عن السواد الأعظم من رعيته بؤس الفاقة وذل الدين ، فإذا تفكر الناس وتهجوا منهاجه عدنا إلى ما كان عليه أجدادنا من البساطة والسعادة وعشنا في محيط من الوئام والمحبة !!! »

هكذا دار الحديث بين اثنين من عامة الشعب في اسبرطة ، وكانا يتحدثان عن ملك جمع بين الشباب والرجولة الحقة والزهد في حياة النعيم ! ! ورأى سعادة نفسه في إسعاد الفقراء من رعيته ... ذلك هو الملك (أجيس) العظيم(١)

رأى الملك أن الأشراف قد تركوا حياة الخشونة واستعذبوا عيشة الترف ، وأن الأرض

---

(١) (أجيس الرابع — Agis IV) بتعطيش الجيم هو أحد ملوك أسبرطه ، حكمها بالاشتراك مع (ليونيداس الثاني — Leonidas II) من سنة ٢٤٤ إلى ٢٤٠ قبل الميلاد

قد آلت إليهم إلا القليل الذى بقى فى أيدى صغار الفلاحين ، وأن السواد الأعظم من رعيته معدم مدين يعيش عيشة الأنعام ، رأى ذلك البؤس يسود أسبرطه فرجع بخياله إلى الماضى السعيد ، وناقت نفسه إلى إصلاح هذا الفساد .

وعرض ذات يوم أن جلس الملك الفتى إلى جدته وأمه يحادثهما فى شئون الرعايا فقال :

« أنتما لا شك على جانب عظيم من الثراء ، ولو أنكما تقبلان ما أشير به عليكما لكنتما مثال النبل والرحمة ، ولصرتما قدوة لبقية الأغنياء ، ولكان لكما عند الآلهة المقام المحمود .... »

« نحن يا آجيس نأخذ بما تحب »

« إذا صح ما تقولون نزلتما عن كثير مما تملكان ، ونزلت أنا عن جميع ما أملك ، ونزل الأغنياء فى بلدنا عن كثير مما يملكون ... »

« ثم ماذا يكون يا آجيس مصير ما نزلنا عنه ؟ »

« يكون من ذلك متاع للصالح العام ، متاع لهذه الفئة البائسة المعدمة التى أثقلها الدين وأضرها العوز ... !! وإلا خبرانى من يكون لأولئك الرعايا اليائسين يواسيهم ويرفع عنهم البأساء والضر ؟؟؟ لهم آجيس يضحى كل ما يملك فى سبيل سعادتهم : لهم مالى وقلبى وجدى وكل ما وهبنى الآلهة من جاه واقتدار ، فما خلقت إلا خادماً لشعبى أوفر عليه الرفاهية والطمأنينة والسلام ... !! نعم تصبو نفسى إلى غاية واحدة ، هى أن يكون الأسبرطيون سعداء ، ولن تكاد سعادة القوم إلا قليلا ، فهذه الأرض التى تنزل عنها نقسمها إلى أنصبة صغيرة نوزعها على الفقراء من رعايانا ، وبذا يجد كل أسبرطى أرضا ينبت فيها القمح والأعناب لعياله ... ليس هذا حسب ، ولكن العاطلين يجدون بهذا عملا شريفا يحولهم إلى حياة النشاط والوقار والرشاد .. وحين يوفقنى الآلهة الخالدون إلى تحقيق ما تصبو إليه نفسى ، أسير فى طرقات أسبرطة فلا أجد شاكيا ولا باكيا ولا كئيبا ... ، وأكون بذلك قد قمت بشئ من واجبى وأرضيت ضميرى شيئا من الأرضاء . . . »

فلما فرغ (آجيس) من مقالته هذه ونظر إلى أمه وجدته رأى كلامه قد أخذ منهما كل مأخذ ، ثم أنهما أحستا الجواب عليه ، وأبانتا رغبتهما فى العمل لصالح المحكومين المساكين .

وكان أن جمعتا بعد ذلك نساء الطبقة العالية وتحدثتا إليهن فى شأن الفقراء ، وقصارى القول أن كانت منهن جميعاً أمة تعمل على إنصافهم وإسعادهم ، وتكلمت واحدة منهن فأبانت فى الكلام ، وقالت إن الأمر قد تجاوز بالفقراء قدره وإن العمل أجدى من الأقاويل ، وإن واجبهن جميعا أن يستعن أزواجهن إلى ذلك العمل العظيم ، وبذا يقدمن لوطنهن العزيز

خدمة غالية ، ويعيش الأسبرطيون كما عاش أجدادهم قانعين سالمين . . .

هذه الأخبار تكلم بها المتكلمون على رؤوس الجوع الحاشدة من الفقراء ، وألقاها الملقون فى أفواههم فقرت عيونهم قرورا ، وعلم بها الأغنياء الذين يكنزون الذهب والفضة فانكدر عيشهم وأخذهم الوجد إشفاقا وحذراً على ما يملكون .

وتميزت أسبرطه عن باقى ولايات الأغريق من الناحية السياسية بأنها فضلت الملكية الثنائية ، وأقصد بذلك أن يجلس على عرشها ملكان يحكمان بالاشتراك ، وكان يجلس على العرش مع (آجيس) ملك آخر يدعى (ليوتيداس) ، وكان آجيس أصغر الملكين سناً وأكبرهما قلبا وأحرصهما على خير الرعايا ، فلما كان ما ذكرنا من شأن (آجيس) وعتقه الرعايا وتعلقوا بشخصه انضم ليوتيداس إلى فئة الأشراف ورغب فى القضاء على سياسة منافسه ، ولكن الشعب ألجأه إلى الفرار ، وتولى مكانه زوج ابنته المسمى (كليومبروتاس) واشترك مع آجيس فى الحكم .

وكان أول ما عمل آجيس أن ألغى الديون القديمة واجتمع الأسبرطيون فى سوق المدينة يشهدون إحراق الصكوك والوثائق التى يحملها الدائنون ضمانا لحقوقهم ، وبذلك أصبح المدينون فى حل من سدادها ، وكانت كلما ألقيت فى النار إحدى الوثائق علا هتاف الهاتفين بحياة الملك ، ثم جاوز آجيس هذا فنزل عن ماله وأرضه بزرعها وضياعها فوزعت على الفقراء ومنط مظاهر الحماسة والابتهاج ، وصنعت أمه وجدته وكثير من أسرته كما فعل آجيس ، ولكن عدداً كبيراً من الأغنياء قل يلتمس معجزة تقضى على هذه الحركة التى تجردهم مما يملكون ، وكانت قد اشتبت الحرب بين ملكين فى إحدى نواحى بلاد الاغريق وخرج آجيس بجيشه ينصر فريقاً على الآخر ، وشغل بالحرب فانتهز الأغنياء هذه الفرصة وثاروا ثورة هائلة وأرجعوا ليوتيداس إلى عرشه قبل أن يتمكن آجيس من العودة ويجهد فى التوفق من الأمور ، وفر كليومبروتاس الذى كان شريك آجيس فى الحكم ، ولما عاد آجيس وجد أن ليوتيداس قد مكن لنفسه ولم يجد مكانا يتحرز فيه من الهلاك غير المعبد المقدس ، لأنه مكان حرم الآلهة القتال فى داخله ، وذهب زميله إلى معبد آخر يعتصم فيه ، وعلم ليوتيداس بذلك فرصد رجاله حول المعبدين ينتظرون خروج الملكين الطاريين .

أما (كليومبروتاس) الذى كان زوجاً لابنة ليوتيداس فقد كان يعتقد أن زوجته هى ركنه ورجاؤه فى محنته ، وذهبت هى تحمل طفليها إلى المعبد وجلست إلى جوار زوجها ، ونقل الحراس ذلك إلى أبيها فجاء إلى المعبد فى جبروته وقوته ، ورأى ابنته وقد أسدلت شعرها على كتفيها وشملها الحزن فأفقدها صوابها ، فكانت تارة تعتنق طفليها وأخرى تلزم زوجها وتقول كلاما يشق القلوب ، وما كادت ترى أباها حتى قالت تخاطبه :

« حنانك يا أبي ورحمتك ، لقد تبعتك من قبل إلى منفاك حين تنكرت لك الدنيا وأنكرتك اسبرطة ، وكنت لك صبراً وسلواناً على مجدك السالف وعرشك الضائع ، واحتملت فى سبيلك ما لست تفساه ، أما الآن فان زوجي هو صاحب الحنة ، وكما قاسيت فى سبيل والدي فانى أقاسى اليوم من أجل زوجى وشريكى فى الحياة ، وإنى يا أبى لن أطيق صبراً على فراقه ، فان أمرت بقتله فانى أخلص نفسى من الحياة قبل أن يصيبه سوء » .

قالت الفتاة ذلك وأسندت رأسها إلى ذراع زوجها واستغرب طفلاها فى العويل خوفاً على أبيهما ، وأثر ذلك المشهد فى نفس ليونيداس وسمع الحضور تهامسه مع حاشيته ، وأخيراً نظر إلى صهره وقال مخاطبه :

« اليوم نجيتك من الهلاك وتحكم علينا بالنفى إلى خارج اسبرطه » ولم يكد الملك ينتهى من مقالته حتى نهض الرجل ونهضت زوجته وحمل كل منهما طفلا وخرجا إلى حيث الاغتراب والنفى .

أما آجيس فقد أرسل إليه ليونيداس يلاطفه ويطلب إليه أن يخرج من الهيكل ويأخذ بنصيبه فى حكومة البلاد مرة ثانية ، ولكن رابه ريب من كلام ليونيداس ، وأخيراً كان يخرج آجيس كل يوم إلى الحمام فى نهاية الطريق المؤدى إلى الهيكل فيمضى فيه ساعات ويعود إلى الهيكل آمنا ! وبقى على ذلك أياماً يروح ويغدو ولا يعترض له أحد فى الطريق ، وكان يقابله كل يوم ثلاثة من أصدقائه فيسلمون ويتحدثون فى كل مرة كلاماً مختلفاً معسولا ، كل هذا وهم يحتالون للقبض على آجيس حتى تكون لهم عند خصمه الحظوة ، وفى ذات يوم قابلوه فى الطريق إلى الهيكل فتقدموا قليلا حتى اطمأنوا إليهم ، وأخيراً وضع أحدهم عباءة على وجهه وأمسك الآخران ، بذراعيه وانطلق بقية رجالهم من مخبأهم وساقوا آجيس إلى سجن المدينة وزجوا به فى غيابته .

ولم يمض غير قليل حتى جاء القضاة (١) وعقدوا مجلسهم فى إحدى قاعات السجن وبدأوا على ضوء المصابيح يحاسبون آجيس على ماقدمت يداه ويبحثون عن الرأى فيما يتهم فسألوه أسئلة قليلة ؛ وأخيراً سأله واحد منهم :

« ألا تندم يا آجيس على ماقدمت يداك ؟؟ »

وكيف أندم على عمل مجيد قدمته للوطن وبقيه ؟؟ إن الموت أهون عندى من الندم فى حضرتكم ؛ وليفعل القدر مايشاء !!!

---

(١) نقصد بالقضاة هنا (مجلس المراقبين الخمسة) أو « الأيفور Ephors » وهو مجلس يباشر فى أسبرطة سلطة واسعة النطاق لاتقل عن سلطة الملوك .

وأخيراً نطق القضاة بالحكم وإذا به يقضي بإعدام آجيس ، وسرعان ماحمله الجنود إلى إحدى غرف أخرى وشنقوه ، وقبل أن يقضي رأى أحد الجنود يستعبر فقال مخاطبه :

« لاتبك من أجل بإصاحبي ، فأنا أسعد حالا من أولئك الظالمين الذين قضوا عمرهم عدوانا وظلما ! »

ودخلت جدة آجيس عليها تحظى بلقياه قبل موته فأعدمها الجنود في غير رحمة ، ورحلوا جثمانها إلى جوار جثمان آجيس ، وجاءت أمه تسعى للقاء ابنها فوجدته جثة هامدة ، فركعت إليه وقبلت شفتيه الباردتين وقالت تخاطبه :

« قضيت يا آجيس وكنت من قبل ملكا على اسبرطة ، فأديت أمانة الحكم وكنت من الصالحين المصلحين » حينذاك قاطعها الجنود الغلاظ وقال واحد منهم مخاطبها .

« إن هذه العجوز قد رثت آجيس فلقيت حتفها وأرقدناها إلى جواره وإن في المكان متسعاً لجثة ثالثة !! » — قال ذلك وهم بالملكة فقتلها وهي تردد آخر الأنفاس : « لتكن دماؤنا في سبيل اسبرطة » .

آيات الخالق

تنشق السوداء عن النبت الأخضر ، وتحمل الأغصان الخضراء نيجانا من الزهر الأحمر والأزرق ، ويسري في جسم الزهرة ماء الحياة سريان الدم في الكائن الحي ، فتطلع وجنتها بشرا وسرورا ، وتتفتح عينها على ماتحيط بها من جمال الكون ونضارة العالم ، فتسمع — وكأنما في فمها ابتسامة — غناء البلبل وسجع الحمام وخرير الماء ورفيف الطير ، وتحس بداعبة النسيم ، وقبلات الهواء ، وتسمع همس الطبيعة روحي الوجود ، فتميل فوق الغصن وتميل الغصن من تحتها ، وتأخذهما معا نشوة الطرب ، فيرقصان ماشاء لهما النسيم ، وتنفح العالم بما عندها من شذى وتهدي إليه مابها من عطر .

فما أبدعك يازهر ! وما أبدع اليد التي صنعتك ! وما أكثر مافيك من دلائل على جمال صانعك !

قف يا أخي بجوار زهرة منقطة أو مخططة ، وحد في النظر إليها فإنك لاتجد فيها نقطة أكبر من الأخرى ولا خطا أطول من الآخر ، ولو كنت رساما لرأيت انسجام اللون وإتقان الصبغ وجمال الزخرف الذي وضعته يد القدرة على صفحة الزهرة ، ولو أدنيت أنفك من هذه وشممت عطرها ، وقربتها من تلك ونشقت طيبها ، لوجدت لكل واحدة عطرا يختلف عن الأخرى مع أنها كلها نبتت في ثرى واحد وغذاها هواء واحد وراواها غيث واحد . فما أقدر الصانع !

وتأمل يا أخي شجرة التفاح ذات الأوراق والأغصان ، وغرسها البستاني في تربة الحديقة غصنا واحدا لا أكثر ولا أقل ، وتعهدها بالسقيا فنما الغصن حتى صار دوحة وشب الفرع حتى صار شجرة ، ولما بلغت أشدها واستوت تدلت منها عناقيد التفاح جميلة بلون وجنات الحسان وإذا ماذقت تفاحة منها وجدتها حلوة ، أو أخرى وجدتها أقل منها حلاوة أو ثالثة وجدتها مرة ، وهكذا يدهشك غرابة الصنع ، ويستولي عليك العجب حين تعلم أنه ثمر شجرة واحدة نمت في تربة واحدة ، « وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل ، صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

فمن ذا الذي شق السوداء عن الأخضر ، ومن ذا الذي توج الأغصان بتيجان الزهر ، ومن ذا الذي لون هذه بالأزرق وهاته بالأحمر وتلك بالقرمزي ، ومن ذا الذي عمرها بالطيب وعمرها بالشذى ؟ !

ومن ذا الذي لون التفاح بلون وجنات الحسان ، وأودع في ثمر الشجرة الواحدة طعوما مختلفة ومذاقا متباينا ؟ .

ذلك هو الله خالق كل شيء ، ومدبر كل شيء لم تدركه الأبصار ولكن عرفته العقول والبصائر ..... عرفه العرب وسموه الله وعرفه الأنجليز وسموه The God وعرفه الفرنسيون وسموه Die .

من ذا الذي علم النمل النظام ، وأوقفه على الاتحاد ، وهداه بفطرته إلى التماس غذاءه الشتاء في الصيف ، والاستعداد لأيام السنة وحالات الجو ، وألهمه أن يبني بيته على نحو يسعه ويسع طعامه ونسق يدل على العقل والحكمة والتدبير ؟ .

ألا تراه يميز الحلو من الحريف والمر من المز ، ويعثر على الطعام وإن علقته في الفضاء ، أو حصنته بحصون من حديد ؟ ؟ .

ثم ألا تراه يسعى بلا يأس ، ويجد بلا انقطاع ؟ فيضرب بذلك للإنسان أبلغ الأمثال على المثابرة ، وقوة العزيمة ، وكيف تنجح الجهود المتواصلة ، وكيف تبلغ الأنفس آمالها بقوة المثابرة وطول الجهاد .

ومن ذا الذي علم النحل أن يعمل ، وأن تكون منه طائفة تغشى الزهر وتجمع رحيقه ، وأخرى تربي الصغار وتدافع عن الخلية وثالثة تتناسل وتحفظ النوع ؟

ثم لماذا لا تراه يعيش أفرادا ؟ أليس لأنه يدرك بفطرته حاجته إلى الجماعة وارتباطه بها ، فيبقى إلى جوارها ، ويشط لأداء واجبه نحوها مادامت الحياة تجري في جسده ؟!

« وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه

شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » حقا فى مملكة الأحياء آيات على عظم الصانع لمن ينظر ويتأمل ، وفى أصغر الأحياء قبل أكبرها مجال كبير للتفكير والتدبر ، فتلك الدودة الصغيرة التى يتألف جسمها من قناة بسيطة تؤدى وظائف الهضم والتنفس ، وتقوم بكل مايقوم به الانسان من ضرورات الحياة ، لاشك ترشد إلى قدرة الصانع وعظمته .

وانظر فى مملكة الطير قليلا تر العجب .

فمن ذا الذى علمه أن يبنى وكره فوق أفنان الأشجار حتى يأمن غائلة الانسان وعدوانه؟ ومن ذا الذى هداه إلى كيفية بنائه وتنسيقه ؟ ومن ذا الذى أشرب قلبه محبة صغاره والحنان عليها والصياح والصراخ إذا نزل بها مكروه ؟؟

قل لى بربك ، ألم تر غربانا — هوى منها واحد — تجمعت فى الفضاء وحلقت فوق جثته ولها نعيق يحرك القلوب الجامدة ويثير فى النفس آلاما وأشجانا ؟

ألا يدل ذلك على رقة قلبها وعلى مأوذعه خالقها فيها من حنان ورأفة ؟! ثم ماظنك بعصفور فقد صغاره ؟ ألا تراه فوق الغصن ينوح بصوت يهيج الألم ويثير الشجن ؟ ثم لايزال كذلك حتى يقفى نحبه أو يجد صغاره .

تباركت يارب . هذا الطير يسبح بحمدك ، وهذا الزهر يدل على جمالك ، وهذا العالم بما فيه يشهد لك بالعظمة والقدرة ، وهذا الانسان غريق فى ملذاته وشهواته لاينظر ولا يتأمل ولا يتدبر . !!!

(كفر الشيخ) محمود عيسى عبده

المستحيل ! !

هو أن تجد جودة وأسعار بضائع

محمد نجا وحسن ابراهيم العمدا

بالسكة الجديدة بمصر

أصواف — أجواخ — قطن — سكروته — حرير

خصم ٥ ٪ لرجال التعليم الأزهرى